السراب

الأستاذ ثروت أباظة

هي القصة الرائعة التي أعيا الفنان العبقري نجيب محفوظ ، وقد أدار حوادثها في بيئة متوسطة ليست بالوفيرة الغنى ولا هي بالمدقعة الفقر .

أطلق الأستاذ نجيب قصته على لسان شاب في طريقه إلى إغلاق الحلقة الثالثة من عمره . . فهو يقص علينا حياته بادئا بالفطام منتهيا بما يرفع عنه القلم ... وقد عاش حوله أشخاص كثيرون كان شأن نجيب معهم شأنه دائما مع شخصياته جميعا ، يمسك بزمامهم في قوة المتمكن العتيد ويحركهم في دوائرهم المرسومة راسما في كل حركة من حركاتهم خطا بصور ما ينضم عليه نفوسهم من خير أو شر فتعرفهم وتعيش معهم فكأنهم أصدقاء المعمردون أن يقدموهم لك القاص ودون أن يقدموا هم أنفسهم ... بحسبهم وبحسبك أن يسيرهم نجيب وأن تتابع أنت سيرهم فإذا هم الأصدقاء القدماء أو هم — على التقدير المتواضع — أناس عرفتهم فأحسنت المعرفة .

بطل القصة (كامل رؤبه) يتابعه نجيب أو هو يتركه يتابع نفسه ويروى لنا أنه نشأ كعود وحيد في حقل كبير لا يعتني به إلا الأرض وصاحب الحقل ، وقد كانت أرض (رؤبه) أمه وكان صاحب الحقل جده . وهكذا كان الولد مشدودا في طفولته إلى فستان أمه أيا كان نوع هذا الفستان فهو معها في كل مكان وهي تأبى عليه الا أن يكون كذلك . حرمت عليه لعب الأطفال وحرمت عليه الخروج حتى إذا ما ذهب إلى المدرسة عجز عن رد السخرية بل عجز عن الكلام حتى لتسمعه حين يسرح يقول للأستاذ (يانينه) فتبقى الكلمة علما عليه طول أيامه في هذه المدرسة . . ولم تكن الأم بالمثقفة حتى تفتح ذهنه إلى شيء . كل ما علمه عن الحياة ان له أما وله جداً وله أبا سكيراً لم يقم مع أمه

منهما مثالا للسيدة المثقفة ، وقد اختلفتا في ثلاث نقط الأولى أن السيدة مفيدة اعترضت على إحصائية سنة ١٩٣٧ إذ تغيرت الأحوال بعدها ، فاحتدت السيدة أمينة في الرد قائلة إن زميلتها سألتها فيما بينهما لماذا أتت بالإحصائية القديمة فأجابتها بأنها آخر إحصائية ، ثم استغلت ذلك في المناقشة العلنية . وأبانت السيدة أمينة أن الأقبال على الزواج زاد في خلال الحرب ثم رجعت الحال إلى ما كانت عليه ، ولكن من أين عرفت ذلك وهي نفسها تقول إن إحصائية سنة ١٩٣٧ هي آخر إحصائية ؟ والنقطة الثانية هي أن السيدة مفيدة عارضت تحبيذ الزواج المتأخر ، وألقت التبعة في تغير الرجل وانعدام حبه لزوجته الى الزوجة ، لأنها لا تظل على العناية بنظافتها ومظهرها التي تكون في أول عهد الزواج ، بل تهمل نفسها بحيث لا يراها الزوج على ما يحب . أما النقطة الثالثة فهي مسألة الزوجين العاملين فقد دافعت السيدة مفيدة عن هذه الزوجية وقالت ان الواقع ينطق بما فيها من السعادة والوفاق .

وقد لاحظت أن الجميع اتفقوا على التهوين من شأن أزمة الزواج حتى كادوا يقولون بأنها غير موجودة . ثم استرسلوا بعد ذلك في بسط الأسباب الداعية حتما إلى أزمة لا شك فيها ... والواقع أن الحال أشد مما صوروها ، فالأزمة وان كانت محصورة حقا في شباب الطبقة المتوسطة إلا أنها قائمة بينهم بدرجة خطيرة ، وهم خلاصة أبناء الأمة الذين يعول عليهم في شئونها ومستقبلها .

ولم تخل الندوة من بعض الدعابات والفكاهات ، فقد لاحظ الحاضرون أن السيدة أمينة تكثر من كلمة « مظهر » حتى قالت عن شيء إنه مظهر سيء . فقال خلاف بك : لا إنه « مظهر سعيد » وقدم السيدة مفيدة أخيرا بقوله : والخلاصة المفيدة تسمعونها من السيدة مفيدة ...

ومما حكاه الأستاذ مظهر سعيد من التندر على الزواج أن أحد المدرسين كان مرافقا لتلاميذه في رحلة بحديقة الحيوان ؛ فرأى تلميذ حمارا وحشيا يجري وراء أتان ، فسأل المدرس عن سبب ذلك ، قال المدرس : إنه يريد أن يتزوجها : قال التلميذ : وهل يتزوج الحمير ؟ فقال المدرس : وهل يتزوج إلا الحمير ... ؟

عباس فضر

أكثر من شهور متفرقة . . أنجبت أو هي في الحقيقة جلبت فيها إلى الحياة ثلاثة أفراد : . بنتا وولدين كان بطلنا صغيرهم — عاش مع أمه التي تعيش مع أبيها الضابط المتقاعد . . هذا هو كل ما عرفه كامل ، وهذا هو ما ظل يعرفه من أمور الدنيا حتى بلغ الخامسة والعشرين من عمره ، فهو شخص خامل جبان ، يخاف الحياة ويخاف الموت ، ويخاف الناس ويخاف نفسه ، غبي ، ضعيف الارادة . . يجهم التافه من الأمور ، يتعثر في خطاه كلما مشى ... ولكنه هو الذي يضع العراقيل التي يتعثر بها . لم يكن من بد أن يتعثر في الدراسة أيضا فنال شهادة البكالوريا لا هنا وهو في الخامسة والعشرين من عمره ، ومنعته سنه الكبيرة أن يحقق أمنية جده بدخوله الكلية الحربية فينحرف عنها مضطراً إلى كلية الحقوق ، وكل ما يسره فيها أنه لن يضرب ... وقد حدث ما سره فعلا فلم يضربه أستاذ بعصا ، ولكن أستاذ الخطابة فعل به ما هو أنكى ، فطلب إليه أن يخطب إخوانه فوقف على المنصة ليصمت وليستدعي هزء إخوانه ثم ليولي وجهه شطر الباب ويخرج . . ويخرج إلى غير رجعه ، فقد صمم على أن يكتفي من التعليم — أو الشهادات فهو لم يتعلم — بما نال ، يسعى بها لدى الحكومة فتعينه ويصير موظفا بوزارة الحربية . يموت جده وقد كان يحمل عنه عبء البيت بما يقبضه من معاش حتى إذا قبضه الله إليه حار (كامل) فيما يفعل ، ولكن الأم تهون عليه وتترك بيتهم الكبير إلى شقة صغيرة وتستقيم الحياة في ظاهرها ولكن كاملا الملتوي لابد أن يلوي الحياة معه ... فهو في حياة جده كان قد أغرته كثرة المال كما اغراه خوفه وضعفه بشرب الخمر التي نكبت أسرته جميعا وصدعت شملهم ولكنه يجد حين يحسوها جرأة لايجدها في نفسه اطلاقا . جبان هكذا هو دائما ، رعديد يخشى الحياة بنفسه وبعقله فهو يذيب عقله الخائف ، ويغمر نفسه الهالعة في كأس الخمر ، ولكنه حين مات جده لم يجد ما يكفيه لشربها أو هو على الأقل لم يجد ما يدارم به على شربها .

أم جهول وإن غبي ! ماذا نرجو ؟ نعم . . لقد شب الطفل خسيس النفس يستعين بجسمه على إخماد غريزته ، فلم يجد من يبصره بالعاقبة أو من يعالجه بما يعالج به المراهق — فأفرط حتى تمكنت منه العاده ... وقد أثارتها في نفسه خادمة قبيحة عندهم وجدتها أمه معه فطردتها وأخبرته انه أنى إثما كبيرا ؛ فلم يفهم غير هـــذا حتى إذا تقدم خاطب لأمه قفز الاثم الكبير إلى ذهنه وساءل أمه فأخبرته أن الزواج علاقة يباركها الرحمن ولم تزد ، ورفضت الخطبة ، فاختلفت الأمور بذهنه فأكب يجلد نفسه بنفسه حتى أصبح لايطيق إلا هذا . ولما كانت الخادمة قبيحة فإنه شـــب لا يثير حيوانيته إلا المرأة القبيحة ، أما الجميلة فإنه يشرئب إليها بروحه ناسيا أنه رجل .

ظل كذلك حتى أحب ابنة الجار لهم وأراد الزواج بها فوقف في سبيله فقره الذي صار إليه وحياؤه الذي نشأ معه ، واستطاع مرتين تحت وطأة الحب الجارف أن يذهب إلى أبيه يطلب منه العون على الزواج ؛ ولكن الأب يفهمه في المرة الأولى ان لا مال لديه وفي المرة الثانية يتحسس الأب في كلام ابنه معنى التهديد ، ولما كان هو قد حاول قتل أبيه فأخفق ، الأمر الذي جعل أباه يحرمه ميراثه لما كان كذلك ، فإنه يغضب ، ويتجسم كلام ابنه في ذهنه تهديدا صريحا فيطرده ، ويخرج الابن يائساً ولكن لايطول به اليأس بل يموت أبوه ويرث عنه ما يكفيه للزواج فيقبل لا يشجعه عليه إلا حبه متعاميا عن تثبيط أمه ، ويتزوج وينتقل هو وزوجته وأمه إلى بيت جديد ... انزوجته جميلة ... لازوجية إذن ... عجز عنها ولكن الزوجة راضية . . لم يطق الحال فذهب إلى طبيب يتضح فيما بعد انه قريب أصهاره فيعرف الطبيب عادته التي ظل عليها حتى بعد الزواج فيحاول علاجه . . ولكنه لايفلح فينصرف عنه كامل ليستعين بالخمر فينجح نجاحاً واهيا ويقنع نفسه انه نجح ؛ ولكن الزوجة ترجوه أن يرجع إلى ما كان عليه من روحانية فيرجع راضيا في نفسه وعن نفسه محاولا أن يقنعها أنه إنما تقاعس عن رجولته إرضاء لزوجته . وتمشي الحياة به راضية ولكنه رأى في يد زوجته خطابا مزقته حين رآه فثارت في نفسه شكوك ، وذهب يراقب زوجته فيرى فتاة دميمة تغازله فهو جميل ، ويغازلها فهو قذر ، ويخون زوجته التي اتضح من مراقبته لها انهـا بريئة . . وظل هكذا ، دميمته لجسده وزوجتـــه لروحه ، حتى كانت ليلة شعرت فيها الزوجة بوعكة فيطلب اليها أن تبقى بالمنزل فتوهمه أن لاسبب للخوف وتقصد إلى بيت أمها فيشتد بها المرض فتقيم هناك ليلتها ويعود هو من عند

جسده ليجدروحه عندأمها فيذهب إليها ويقيم معها حتى يعدو الليل إلى النهار، فيذهب ثم يعود اليها قبل ذهابه إلى ديوانه ثم لا يطيق أن يبقى بالديوان أكثر من ساعتين فيعود اليها . ولكن لا . لم يعد اليها بل عاد إلى جسدها . لقدماتت كيف ؟ أنها عمليه قام بها الطبيب الذى عرض عليه نفسه . ولكنه يرى أن الطبيب قام بعملية ليست من اختصاصه فتثب اليه الشجاعة ويبلغ النيابة فيكشف التحقيق عن زوجة خائنة خانته مع هذا الطبيب بالذات فكان ثمره الخيانه جنينا حاولا التخلص منه ، ولكنها ماتت.

يذهب إلى أمه يكاد يجن فيفرغ فيها غضبا جائحا ويتركها ليلقى بنفسه فى غرفة غير تلك التى عشق فيها الروح الخائنة حتى إذا كان الصباح نزل إلى القاهرة لايدرى من أمر نفسه شيئا ويقابله صديق يعزيه . لم يكن يعزيه فى زوجه ولكن فى أمه . لقد ماتت لقد أخرج غضبه فى غير موضعه . لقد كانت الأم طريحة الفراش يهددها القلب بالتوقف حتى إذا طالعها من ابنها هذاالمتود . ماتت

وهكذ تتوالى عليه المصائب فى غير توقف . وهوهو الرعديد الجبان الضعيف يخر لهافى غيبوبة ثلاثة أيام يرعاه أخوه وأخته حتى إذا أفاق وتذكر خيل اليه أنه وصل إلى حقيقة نفسه . وهو أنه خلق للتصوف؛ ولكن لم يكد يستقر به التفكير على هذا حتى تدخل اليه دميمته . إنها تسأل عن صحته وتسدل الستار .

إن فى الرواية بعد ذلك لفتات عبقرية إلى دقائق الحياة ليست غريبة على نجيب ولا هى بغريبة علينا منه . فى الكلام الذى يقوله الأب لابنه فى الزيارة الأولى وفى التحليل العجيب لنفسية المخطىء السكير وفى تبريره الشر واقتناعه به بعقله إلى جانب عاطفته وفى دفاعه المنسجم مع منطقه . فى كل هذا اكتمال ، بل قمة فنية نجيب خير من يرقاها .

وفى النقاش الدائر بين كامل السكران وبين الحوذى الذى يطلب اليه (كامل) أن يذهب به إلى بؤرة فساد ؛ فى هذا الحوار لفتات بارعة فترى الحوذى يقول حين يصل (هنا الفساد الأصلى) فى هذه السهولة وهذه الوقاحه وترى (كاملا) يألم على رغم سكره حين يوغل الحوذى فى الحديث . لفتة بارعة أيضا .

بقى أمر لابد أن أعرض له على من تلقى عبء النكبات المتحدرة على (كامل) . نظرة سطحية للامور تجيب : على القدر . ليس القدر كلها أخطاء بشر . أم مدللة ، وجد يدلل الأم . لابد أن ينتج ابن هش . ضعيف النفس يتعلق بالقبح ، وما هذا إلا شذوذا فى الخلق وعقدة فى النفس أودت بحرمة بيته ، وهو غنى ولم يكن الغباء موهبة عنده ، ولكن أمه لم تعط الفرصة لعقله أن يعمل فتجمل ، وعرف فى نفسه الغباء وعرف فيها الجبن ، فاحتقر نفسه ، فسقط لو هيأت له تربية صالحة لما سار إلى هوته . أن ذا النظرة السطحية يقول لم لم يهيىء له القدر تربية صالحة . ليس القدر أنه أبوه وجده لابيه لم يحسن التربية ، ولم يثقف ولده فأدمن الخمر وتزوج ولم يصبر على الرجولة الحقة ، وفضل الدعة إلى جانب كأسه على أن يحمل نفسه مشقة الالتفات إلى أولاده .

والزوجة الخائنة لم يحسن أهلها تربيتها فسقطت وكان الاحرى بها أن تطلب الطلاق ولا تتردى فيما فعلت ، تطلب الطلاق .

ولتستتر بما شاءت ولكن تطلبه .

نجيب إنه لملك تريد أن تقول لنا مامن شر يصيبنا الا من أنفسنا ومامن خير نلقاه الا من الله . ان كنت فقد أحسنت وإن لم تكن فقد قدمت إلى مكتبة القصة قمة جديدة ننتظرها منك وننتظر غيرها وغيرها . صورا عن مصر بشرها وخيرها وعن الناس خيارهم وشرارهم ـ فالفن الصادق هو مايلهمه وطنك تلك النبعة الخالدة . مصر .

ثروت أباظة

مجلس مديرية المنوفية

يقبل عطاءات امانية الساعة ١٢ ظهر يوم الثلاثاء ٢٤ يناير سنة ١٩٥٠ عن توريد كتب وأدوات مدرسية . تطلب القوائم على عرضحال دمغة مقابل مائة مليم بخلاف ثلاثين مليما للبريد

٣٨٧٩